كثيـرة هي الأمثال التـي تضرب عن جلبة وهرج هذا السوق، منها ما يمكن نشـره ومنها ما يتعدى حدود اللياقة، فهذا السوق كان مضربا لأمثال الضجيج وقد وجد العاملون في هذا السوق ومنذ سنوات إنشائه لغة يتفاهمون بها تتغلب عليها الإشارة في أكثر الأحيان، وإذا ما قادتك قدماك وصديقك للذهاب إلى الجانب الآخر من سوق النهر أو سـوق القماش عبر هذا السوق تذكر أن تتوقف عن الكلام حتـى تبعد عشرات الأمتار عن صوت الطرق، اليوم لـم تعد تلـك الأصوات سوى لحن نشاز عزفتـه أنامل من الماضي، فيغلب هذه الأيام علـى السوق الصمت المطلق بسبـب تحول اغلب العاملين فيه إلـى التقاعد القسري، أو تحويل مهنتهم إلى مهـن أخرى بدأت تغزو هذا السوق التراثي الجميل ببضائع صينية غالبيتها من الأقمشة والأواني المصنوعة بأحدث التكنولوجيا العصرية.

□ كتابة/ فرات إبراهيم.. عدسة/ محمود رؤوف

قبلة الملوك والرؤساء والشعراء في طريقه إلى الانقراض

سوق الصفافير..

احتله البزازون فصمتت أصوات مطارق النحاس

صمتت مطارق النحاس

غالبية أسطوات هذه المهنة إما توفوا أو هم متعبون، وقد أنهكت قواهم سنين العمل المضني في هذا السوق

ملامح جديدة

يسمونه سوق الصفارين أو سوق الصفافير تضرب به الأمثال لهرجه وكثرة الجلبة التي فيه، وما أن تزور بغداد إذا كنت سائحا أو ابنا لهذا البلد فإن أول الأشياء التي عليك زيارتها هذا السوق.. من خلال تجوالك فيه تشم عبق الماضي وتزدحم في مخيلتك قصص الزمن البهي الجميل تتيه في عالم النقش والزخرفة من خلال أنامل أنهكتها السنون، فبدت ترتجف بفعل تقادم العمر ومع هذا التقادم فإنها تمنحك الجمال والإبداع وسر المهنة التي تتوارثها الأجيال جيلا بعد الآخر.. هذا واقع عشته وعرفته عن هذا السوق منذ سنين ولكن ما أن خطت قدمي من جديد شارع الرشيد حتى تاهت عليّ ملامح السوق فظننت أني الآخر أعيش تقادم العمر وجنوح الذاكرة .. سألت احدهم ..أين يقع سوق الصفافير؟ فما كان منه إلا أن أشار الى المكان الذي يبرأ ذاكرتي من هذا الجنوح هو ذاته السوق ولكن ملامح أخرى أحالت هذا السوق الى سوق آخر غريب الملامح والتفاصيل .. سوق يزدهر فيه بيع الأقمشة وهمس الكلام ويغيب عنه طرق النحاس والضجيج!

سيد مهدي والنحاس الأحمر والأصفر

دخلت السوق وكانت عيني تتجول في ذاكرة الصور وتتجاهل المرئي أمامها من صور أخرى ..باعة الأقمشة بدت محالهم على جانبي السوق وأصبحت تغطي ببضاعتها محال النحاسين اليتيمة، يبدو لي وكأن تلك المحال تريد أن تبتلع هذا السوق حاولت ان اسأل عن معنى لكل هذا لكني وجدت اراءً مبهمة، سألت عن أقدم شخصية في هذا السوق استطيع محاورتها وسؤالها الكل أشاروا إلى محل السيد مهدي، تقدمت باتجاه هذا المحل ووجدت شخصا آخر سألته عن سيد مهدي فأجابني بأنه مريض وانه ابنه، فطلبت منه الحديث عن مهنته وذكرياته، رفض الحديث وطلب مني عدم التصوير او كتابة أي كلام وحينما وافقت على طلبه وقلت له بأني ابحث عن معنى وتفسير لما يحصل اطمأن إلي واخذ يحدثني بكلام تفوح منه رائحة الأسى وعدم الاكتراث، حيث يقول"ما فائدة الحديث معك او غيرك ما الذي سيحدث كله كلام في كلام لا احد يستمع إلى معاناة أصحاب هذه المهنة لقد ركنا كأي قطعة أثرية، السوق لم يعد سوقا للصفافير لقد تم احتلاله بالقوة قوة المال من قبل أصحاب محال بيع الأقمشة.

وعن مبررات احتلاله ولماذا لم يبحثوا في مكان آخر، يقول إن هذا السوق معروف وله مكانة مهمة بين أسواق بغداد إضافة الى انه يقع بالقرب من سوق البزازين، وهؤلاء دفعوا أموالا مغرية من اجل إخراج العديد من الصفارين من محالهم بقوة المال.

وعن أسباب رغبة أصحاب المهن في بيع محالهم يوضح ابن سيد مهدي أنهم يستغلون الضعفاء والذين هم بحاجة إلى المال بسبب كبر سنهم، إضافة الى هذا إن مستوى البيع والصناعة في هذا السوق اخذ في النقصان يوماً بعد آخر بسبب ضعف الطلب على حاجيات النحاس وغياب السياح الأجانب بسبب الوضع الأمني، وبشأن عمله الحالي يبين بأنهم الآن متخصصون بصنع الدلال العربية ولدينا زبائن من كل الدول العربية ، مضيفا بأننا نصنع الدلال من النحاس الأحمر وفيه يكون طعم القهوة ألذ واطيب على خلاف البقية الذين يصنعونها بالنحاس الاصفر، ولهذا فإن الملك فهد حينما زار السوق اثناء مؤتمر القمة العربية فإنه اشترى دلال من هذا المكان كذلك هو الحال بالنسبة لأمراء الكويت وغيرها من الدول.

المحرر مع ما تبقى من الابداع

شارع الرشيد وغياب الأمن

عدد غير قليل من الصفارين في هذا السوق عزوا حالة الكساد والركود التي يعانيها السوق الى أسباب اخرى إضافة الى سبب اجتياح أصحاب محال الأقمشة لسوقهم .

سيد سعد صاحب محل نحاسيات في هذا السوق منذ ٤٠ عاما قال بان غلق شارع الرشيد امام مرور السيارات وجعله سوقا للباعة، ولكل من هب ودب سبب رئيسي لتوقف نشاط هذا السوق، وقال إن المتبضعين في السابق كانوا يركنون سياراتهم وبالاخص منهم السياح الاجانب بجانب السوق، ثم يقومون بشراء حاجياتهم بكل يسر، أما الآن فالأمر يختلف حيث ان اغلاق الشارع ساهم الى حد كبير بتوقف نشاط هذا السوق..ويتذكر سيد سعد اهم المحطات والذكريات في هذا السوق هو يوم زيارة رئيسة وزراء الهند انديرا غاندي للسوق وزيارة عدد من الملوك والرؤساء العرب والاجانب، فضلا عن الادباء الكبار وفي اول زيارة لادونيس للعراق عام ١٩٦٩، حرص على زيارة السوق.

حجي كاطع "ابو احمد" له رأي آخر حيث يقول : اعمل في هذا السوق منذ عام ١٩٦٨ واستطيع ان اقول لك واجزم في ذلك بان السبب الرئيسي في سبب هذا الكساد وتلك الحالة الشاذة هو غياب الامن وبالتالي هجرة السياح الاجانب من البلد وهم العمود الفقري للتبضع من هذا السوق حيث كانوا يحملون معهم اثناء سفرهم الى بلدانهم الحاجيات النفيسة ذات النقوش والزخارف الاسلامية الجميلة وباسعار جيدة جدا ..الان اصبحت مبيعاتنا تقتصر على المواطن العراقي والذي بدوره وجد بديلا ارخص واجمل وهي البضائع الهندية والصينية ومنها الدلال والفوانيس واشياء اخرى.

للأجانب رأي في الموضوع

عدد من الاجانب العاملين في الوكالات الاخبارية من مراسلين ومصورين وغيرهم من منتجي البرامج استطلعنا آراءهم في الموضوع ، إذ توافقوا مع رأي الاخرين ممن تحدثنا اليهم حول الهاجس الامني وغياب الامن اثناء التجوال في اسواق بغداد، ومنها هذا السوق الرائع والكبير على حد قولهم. يقول احدهم بانه وقبل قدومه الى بغداد فقد اوصته عائلته بان يأتيهم بكل ما هو تراثي ونفيس من صناعات يدوية ماهرة لا يجيدها سوى ابناء هذا السوق الذي شاع صيته في مناطق كثيرة من العالم، من خلال الزيارات التي كانت مستمرة من غالبية بلدان العالم لزيارة حضارة وادي الرافدين قبل ان تتحول تلك الحضارة الى واحة للقتل والخطف وارتكاب أبشع الجرائم باسم الجهاد والإسلام ،اغلب من التقينا بهم يستخدمون عراقيين لجلب مثل تلك الهدايا من تلك الاسواق ويعترف بعضهم بان هذا الامر لا يحلو له لأنه يجد المتعة في التجوال في أرجاء السوق والتبضع بما تراه عينه من فنون تبدعها ايدي المهرة من أصحاب المحال في هذا السوق، الا انهم وكما يبدو بحاجة الى زمن طويل لكي يشعروا بأنهم في مأمن من الخطف او القتل اذا ما قرروا التبضع من أسواق بغداد والسهر في شوارعها الجميلة .

المهنة في طريقها للانقراض

البعض يجد إن الاعتراف بأمر نهاية هذه المهنة هو اسلم الحلول وتبريره لهذا الامر هو ان غالبية أسطوات هذه المهنة إما توفوا أو هم متعبون، وقد أنهكت قواهم سنين العمل المضني في هذا السوق الذي لم يجنوا منه في نهاية خدمتهم سوى العزل بعيدا عما كانوا يتفننون في صنعه.

يدافع غازي فيصل صاحب محل اقمشة في هذا السوق عن الاتهامات الموجهة له ولزملائه في المهنة والتي تفيد بان البزازين استولوا على السوق بالقول بان لهم في هذا السوق مثل ما للاخرين، ويستشهد في ذلك بصور وثائقية تعود الى بدايات هذا القرن حيث تظهر صور البزازين في هذا السوق جنبا الى جنب مع الصفارين في ذلك الوقت، مضيفا ان الصفارين لم ينشئوا جيلا جديدا لهذه المهنة وان غالبية أبنائهم استمروا في دراستهم وهم الآن إما أطباء او مهندسون فكيف تريدهم أن يعملوا بالنحاس والطرق هذا أمر غير معقول، مبينا أن أغلبية الناس استعاضت عن النحاس بالبضاعة الأجنبية، والمستورد أجمل بكثير وارخص سعرا وأنيق على خلاف الحاجيات النحاسية وعملها البدائي ، استطيع أن أقول لك وبصراحة إن مهنة الصفافير والنحاسيات بدأت تعلن انقراضها بحسب قول البزاز غازي فيصل، موضحا ان اتهام هذه المهنة أو تلك بأنها السبب في ما حصل لمهنة الصفافير كلام مبالغ فيه والدليل على هذا هنالك مهن أقدم من مهنة الصفافير ما زالت مستمرة ولم يؤثر عليها لا أصحاب الأقمشة ولا أصحاب المهن الأخرى.

عمل وأمل

ماجد الحاج صادق خليفة أبدى استغرابه الشديد من دعوة البعض صفاري هذا السوق للبحث عن مورد رزق آخر

خان الخليلي وسوق الصفافير

لماذا تزدهر أسواق أخرى في دول عدة على الرغم من انتهاء او انتفاء الحاجة إلى نتاجها ولماذا نسمع بأسواق ذاع صيتها بيننا حتى باتت أكثر من نار على علم وأصبحت رمزا وطنيا من رموز هذا البلد أو ذاك، السبب في كل ذلك يعود إلى ان الأمر لا يتوقف عند عملية الإنتاج وحساب الربح والخسارة إنما هنالك حسابات اكبر بكثير من قيمة المال إنها حسابات الإرث الوطني والحضاري والقيمة المادية والتاريخية لهذا المعلم السياحي أو ذاك.

محمد قاسم عبد الحسين صاحب محل لبيع الأواني النحاسية يتساءل عن السبب الذي يدعو الآخرين الى احترام تراثهم وأثرهم على خلاف الحال هنا حيث وصل الامر بالبعض إلى الاستهزاء بالأثر ووصفه بأنه (ست فلوس حديد) ودعا عبد الحسين إلى الحفاظ على ما تبقى من هذا السوق العريق.

ماجد الحاج صادق خليفة أبدى استغرابه الشديد من دعوة البعض لصفاري هذا السوق للبحث عن مورد رزق آخر، فيما دعا كريم الساعدي الدولة إلى الاهتمام بهذا السوق وإنقاذ ما يمكن إنقاذه للحفاظ على هذا المعلم الأثري حاله حال أي سوق اثري في البلاد العربية مثل سوق خان الخليلي وغيرها من الأسواق التراثية. انتهت جولتنا في هذا السوق بيسر شديد بعد أن غابت هذه المرة معاناتنا من عدم سماع الآخرين بسبب صمت أصوات مطارق النحاس. ويرى البعض بأن السوق حاله حال أي شيء يمر بالازدهار ومن ثم يأتي الاندثار وان تلك المهن لم تعد تنفع بشيء كما كانت تخدم البغداديين في وقتها واقترح البعض أن يعاد ترميم هذا الشارع وفق التصاميم الحديثة، ومحاولة الاستفادة منه لعرض بضائع نفيسة وجميلة ، بينما يرى آخرون أن مثل تلك الخطط إذا ما عممت على جميع أسواق بغداد ومعالمها التراثية فإننا سنفقد الكثير من شواهد التراث والأصالة لأن بغداد برمتها هي قبلة الزائرين ليس لأنها تتجمل مبانيها بمادة (الالكوبوند) ولكن لأن اسمها يعني الشعراء والصور.

دقة في العمل